وسائل النجاح فى المجتمع
أو
ثمن الفضيلة !!!

بقلم الأستاذ سيد قطب

منذ سنوات قرأت كلاما منقولا عن مجلة " أمير يكان مجازين " لشاب أمريكى مراهق خلاصته : " أن ما يسمونه الاستقامة والأمانة والنزاهة والشرف صفات ليست ضرورية للنجاح فى الحياة العملية ؛ وأن ما هو ضدها من الصفات أدعى إلى الكسب والفلاح " .

وفى سنة ١٩٣٦ أقيمت مسابقة أدبية كان فيها موضوع عن " وسائل النجاح فى القرن العشرين " وقد علمت أن من بين بعض الرسائل التى قدمت فى هذه المسابقة رسالة ترجع " وسائل النجاح " إلى إجادة النفاق الاجتماعى !

لست أدرى لم لاأستطيع دائما الموافقة على مثل هذه الآراء، ولو كانت الوقائع العملية تؤيدها فى بعض الأزمان ، و بعض الأحوال . و إنه ليصعب علىّ أن أصدق أن هذه قاعدة صحيحة للحياة ؛ وأقصى ما أسلم به أنها قد تصلح فى فترات الاضطراب .

و إنه لمن حسن الحظ أن هذا الاضطراب لا يستطيع القضاء نهائيا على الإيمان بالفضائل الانسانية التى تعبت البشرية فى إنشائها والاحتفاظ بها بعد تضحيات مستمرة ، وأن " دكتور جيكل[1] " لا يزال قابعا وراء " مستر هايد " حتى فى أشد الأزمات وأعنف الاضطرابات .

هذا الشاب الأمريكى يبحث عن ثمن الفضيلة فلا يجده، أو يجد لها ثمنا بخسا فى السوق لا يساوى ما ينفقه الرجل الفاضل فى الاحتفاظ بها ، وصاحب رسالة المسابقة يرى النفاق هو أساس النجاح العملى فى القرن العشرين ، وما هذا وذلك إلا ثمرة اضطراب وقتى فى نظام الاجتماع .

وكثيرا ما يقع أن يبحث الناس عن " ثمن الفضيلة " حينما تهبط بالفعل درجة حرارة الفضيلة فى النفوس ، أما قبل ذلك فهم لا ينظرون إليها من وجهة الربح والخسارة ولا يقومونها بعملة السوق .

---

(١) كناية عن قوتى الخير والشر بالإشارة إلى الرواية البنائية المعروفة "دكتور جيكل ومستر هايد" وقد عرضت قريبا .

ولكن هل الواقع أن الفضيلة لا قيمة لها فى هذه الحياة ، وأن الرذيلة أجدى وأنفع ، وأن المبادئ القويمة إنما هى أوهام وخيالات لا تقوى على الواقع ؟

يقول لنا هذا الشاب الأمريكى : "إن والدى مستقيمان أشد الاستقامة ، ولكن والدى ظل فقيرا يكدح طول حياته ، وظلت أمى محرومة من المتع الدنيوية ، بينما جارنا الذى لم يتبع مبادئ الشرف والنزاهة قد أثرى وزوجته وأولاده يعيشون فى نعيم" .

ثم يقول عن والده : "إن السواد الأعظم فى بلدتنا يكرهونه لأنه منذ بضع سنوات قال الحقيقة عن بعض الوجهاء ولم يكن منافقا . وكثيرا ما سمعت الناس يقولون عن والدى إنه غشاش وجشع ، بينما لم أسمع إلا قليلا من هذه الصفات عن جارنا الذى لا شك فى أن هذا الوصف ينطبق عليه بشدة ! " .

ونريد نحن أن نقول : إن الفضيلة غاية وليست وسيلة ، وأن أول غلطة يرتكبها هذا الشاب وأمثاله أن يفهموا أنها وسيلة فينتظروا غايتها ، وقد لا يجدونها فى كثير من الأحيان .

والذى يدل على أنها غاية من غايات الحياة الكبرى ، وأنها جمال روحانى مقصود لذاته أن الحياة تضحى الضحايا الكثيرة لتصل إلى ذلك الجمال ، على نفس النسق الذى تتخذه الطبيعة للتضحية بالملايين من الأحياء لتصل إلى جمال الأجسام !

فالفكر الذى هو وليد التجارب لا يمكن أن يوحى بتضحية واحدة من التضحيات النبيلة التى يقدمها الأبطال فى سبيل نصرة المبادئ الفاضلة والمثل العليا . وما كان أحرى هذا الفكر أن يهدى صاحبه الى طريق السلامة دائما وينأى به عن التضحية التى لا يعود ثمنها عليه فى الحياة !

لا بد إذن من قوة أخرى غير قوة الفكر تدفع للتضحية فى سبيل مثل أعلى ، ولنسم هذه القوة الروح أو الضمير أو الإلهام . فلن تغير الأسماء شيئا من الواقع ، وهو أن الإنسانية تبذل الضحايا على رغم أنف الفكر الإنسانى المحدود ، ثمنا للفضيلة وللمثالية ، مما يدل على أن الفضيلة غاية فى نظر الحياة لا وسيلة من وسائل المنفعة القريبة ، وأنها لا تعرضها فى السوق لتنال بها دراهم معدودة !

ثم نعود إلى "منفعة" الفضيلة و "منفعة" الرذيلة ، وإن كانت نظرية المنفعة لا تفسر لنا المسألة كما تقدم ، لأن المنفعة "ضرورة" وقيد ، والفضيلة "حرية" وانطلاق ، ولذة ذاتية للحياة . نعود لنجارى أصحاب مذهب "المنفعة" وهم كثيرون جدا لسوء الحظ فى هذا

الطور من حياتنا ، ويزيدهم كل يوم كثرة المثل السيئة التى يجدونها فى كل نواحى الحياة ، المثل الصارخة على مكافأة الرذيلة بالنفع والتقدم والجاه ، ومكافأة الفضيلة بالحرمان والتخلف والخمول !

الذين يفرضون أن الرذيلة " تنفع " وأنها أقرب طريق للوصول إلى المال والسلطة والجاه لا يفرضون أنها ستكون نظاما عاما لهذا العالم ، ولا يتصورون الناس جميعا وهم معتنقون لهذا المبدأ ، و إلا انتفت المنفعة وأصبحت مستحيلة .

ولنفرض أن كل الناس لصوص ، فكيف ينتفع كل منهم بلصوصيته ؟ أو محتالون فكيف ينتفع كل فرد منهم باحتياله ؟ ألا يقف كل منهم عاجزا إزاء الآخر الذى يحاربه بنفس سلاحه .

ماذا يفيد لص من لص ، أو محتال من محتال ، أو منافق من منافق ؟

والعمل لا يكون صالحا للأخذ به حتى يكون نظاما صالحا لأن يعمل به الجميع ، " ونظام الرذيلة " تنتفى " منفعته " عن كل فرد ، متى أصبح عاما لكل فرد ، ولا تتحقق المنفعة فيه ، إلا حين تكون الفضيلة هى النظام العام ، والرذيلة هى الاستثناء من هذا النظام ، فعندئذ يكثر الاطمئنان والغفلات ، وينال الأشرار ما لم يكونوا ينالونه لو أن الجميع أشرار !

وهذا وحده يكفى لحسبان الفضيلة أصلا لنظام الحياة والمجتمع لا يصلحان بسواه . أما أن بعض الناس ينالون بخروجهم عن حدود الاستقامة مالا ينال الآخرون بتمسكهم بها فقد يكون صحيحا فى بعض الأحيان . ولكنه لا ينهض دليلا حاسما على صلاح هذه النظرية بصفة عامة .

على أنها ليست قاعدة فى أى زمان أن ينجح كل شرير ، وأن يخفق كل مستقيم . وربما كانت الأمثلة الصارخة وحدها هى التى تهيئ لنا ذلك . ولكننا لو قمنا بإحصاء عام فربما كان نصيب الاستقامة من النجاح أكبر . وان كانت بعض عهود النكسة تضعف هذا اليقين فى النفوس ، وتقتل الايمان بالمثل العليا ، وهى عهود محنة لا يقاس عليها !

أما راحة الضمير وعذابه ، وأما إثبات الشخصية وتضاؤلها فهى معان قلما ينتبه الناس لها فى مثل هذه الظروف . ولكنا نرسلها كلمة ينتفع بها من يريد : إن الضمير حقيقة واقعة ملموسة لا غنى لعاقل عن الاعتراف بها ، ومهما بلغ من موت الضمير الفردى وانعدامه فى بعض الأحيان ، فإن الدليل على حيويته ووجوده هو الضمير العام . هو ضمير الشعوب الذى قد تطول مغالبته ، ويبذل ما يبذل لخداعه وغشه ، ولكنه يستيقظ فجأة بعد الخمود ويعلن وجوده على رغم كل مغالبة ، وينكر على الأفراد كل انحراف .

ان للشعوب أنوفا تشم من وراء الجدران ، وقد تزكمها الرائحة فى أول الأمر ولكنها لا تلبث أن تفيق ، وأن تقوم بالعطاس كرد فعل للرائحة الكريهة ، وفى هذا ضمان كاف للفضيلة والفضلاء .

* * *

و بعد، فقد ورد فى كلام الشاب الأمريكى ما هو جدير بالنظر من وجهة التربية المنزلية أو المدرسية فهو يقول :

"هاكم ما فهمته مما تعلمته فى هذا الصدد فى البيت والمدرسة :

أولا : ان الاستقامة جزاؤها جنة النعيم .

ثانيا : أن الجميع يحبون الأمين المستقيم .

ثالثا : أن كل انسان يثق بالشخص الأمين النزيه.

رابعا : أن كل الناس تؤيد المستقيم وتعضده .

خامسا : أنه يجب على المرء أن يكون أمينا لينجح فى عمله .

سادسا : أن الاستقامة تؤدى الى الاحترام والسعادة .

كنت من المؤمنين بهذا كله حتى بضع السنوات الأخيرة اذ بدأت أنظر إلى ما حولى وأتصور وقائع الحياة. والآن أصبحت لا أصدق كلمة واحدة من الأسباب الخمسة الأخيرة وأرى السبب الأول فوق ادراكى ! "

وهذا الاعتراف يلفت نظرنا إلى الخطر الكامن وراء تلقين التلاميذ أن الفضيلة "نافعة" فى كل حالة من الحالات . حتى اذا خرجوا إلى الحياة وحاولوا تطبيق هذه التعاليم بحرفيتها اصطدموا بالواقع ووجدوه لا يطابق ما تعلموا فى البيت والمدرسة . فيتزعزع يقينهم بالمثل الأعلى وإيمانهم بالفضيلة ، ويشكون فى صدق كل ما كانوا قد تعلموه . وما أشد خطر هذا الشك فى النهاية .

ولو أننا سلكنا فى تحبيب الفضيلة الى التلاميذ طريقا أخرى غير طريق المنفعة، لكان ذلك أجدى ، ثم لو اننا تحفظنا فى تصوير القيمة العملية للفضائل ، وأوحينا للتلاميذ بفكرة التضحية وتحمل الآلام فى سبيل المثل الأعلى لا للفائدة بل للذة ، لنشئوا وهم أثبت يقينا فى المبادئ العالية ، مهما لقوا فى سبيلها من آلام .

ولعل من الانصاف لهذا الشاب الأمريكى المنشكك المضطرب أن نثبت له فقرة من كلامه فيها تصوير للواقع فى كثير من الأحيان فهو يقول :

"وقد راقبت أمور الحياة وتعلمت كيف أكون نصابا محترما، وهذا أمر بسيط و يتسنى لكل امرئ أن يكون كذلك وكل ماينبغى لذلك أن يستطيع المرء إضحاك الناس وأن يعطف عليهم وأن يوافقهم ويجاملهم وأن يقوم بين حين وآخر بعمل صالح مثل ارجاع محفظة مفقودة فيها مبلغ طيب أو التبرع بمبلغ لعمل خيرى وأن يكون له عمل مشروع ظاهر ووراء هـذا الستار يتسنى للمرء أن يأتى أى عمل آخر لاكتساب المـال واذا فضح أمره مرة فما عليه الا أن يرفع عقيرته بالشكوى و يمـلأ الفضاء صياحا و تبرما بظلم الانسان وأنه برىء مضطهد فيرثى له الجميع و يعطفون عليه".

هذا صحيح ، ولكن ما فى كل مرة تسلم الجرة ، والبداهة الإنسانية كثيرا ما تكشف هذه الأستار وتفضح المخبوء والدفين . وضمير الجماعة كما قلت قد يخمد و يتوارى ولكنه يعود للحياة والظهور لأن الحياة لا تصلح بغير فضيلة ، ولا تعيش بغير استقامة ، ولا تصبر طويلا على الخداع والغش والسقوط .

سيد قطب

حين نعرف المثل الأعلى لحرية الإنسان نعرف جوهر طبيعته ومعنى نفسه الحقيق . النظرة الأولى ترينا أن حريته بأن يكون طليقا فى نيل لذات النفس وعظمتها . ولكن التاريخ يؤكد غير ذلك : إن عظماءنا هم الذين عاشوا حياة تضحية النفس ، و إن الطبيعة العلوية فى الإنسان تنشد شيئا أعظم منها وهو مع ذلك معناها العميق .

من كتاب السادهانا لتاجور